تتناول افتتاحيةُ الآداب مهرجانَ المدى الخامس الذي أقيم في أربيل في ربيع ٢٠٠٧ بدعوة من حكومة إقليم كردستان. وقد رأى فيه سماح إدريس، بالوقائع والأدلّة الدامغة، خلطًا وتواطؤًا مع السلطة غير الوطنية، وغيابًا للحريات. كما رأى في تمويل المهرجان من خارج المجال الثقافي تكريسًا للاحتلال الأميركي للعراق، في الإقليم الذي تُهدَرُ فيه الحريات، وفعلاً من أفعال تقسيمه الطائفي والعرقي الذي يؤدّي إلى التنازع، وإلى تزييف ثقافته... ولقد كان أداةَ المهرجان الفعّالة المستشارُ الثقافي أو «كبيرُ المستشارين» للرئيس جلال طالباني، منظّمُ المهرجان وراعيه، فخري كريم، الذي انقلب، بفعل السلطة الجديدة والتمويل، على المبادئ القومية التي كان يدافع عنها من قَبلُ كيساري. وهكذا تخلّى عن معتقداته، وتحوّل من الالتزام إلى ليبرالي يتحالف مع كلّ من كان يقف في الماضي على النقيض منه.

وإذا تأمّلنا هذا الموقفَ من الثقافة والمثقفين في ضوء وضع فخري كريم بين السلطة والثقافة، فليس له معنى إلاّ أنّنا كأمة عربية نمرّ بمرحلة جديدة في مناهضة الفكر الحرّ وعداءِ الثقافة، لا تقلّ عن مراحل سابقة في أرشيفها القريب والبعيد، اتّسمتْ بكتابة التقارير الأمنية عن المثقفين، وجرِّهم إلى ساحات المحاكم، وتهميشِهم، وتجاهلِهم، وتكفيرِهم. وها هو لبنان، أمُّ الشرائع القديمة، وزهرةُ الفكر التحديثي، يعاني هذه الأوضاعَ، بهذه الصورة الحادة.

يُذْكَرُ لمصرَ أنّها شاركتْ بعدد من أدبائها في الحملة المدافعة عن الآداب ورئيس تحريرها، وإنْ كان حجمُ المشاركة بالقياس إلى حجمها الكلّي لا يتلاءم مع وزنها وتاريخها ومعاناتها من مثل هذه القضايا، ولا يتلاءم أيضًا مع علاقتها بـ الآداب كمجلة قومية يصفها البعضُ بأنّها كنزٌ ثمينٌ ودرّةٌ نادرةٌ وذاكرةٌ حيةٌ لا يجب أن تُقتل. ولعلّ ذلك يعود إلى سببين: السبب الأول هو تصاعُدُ التيارات الأصولية التي غدت تشكّل الرأيَ العامّ بأكثر مما يشكّله الفكرُ المجدّدُ غيرُ التقليدي. والسبب الثاني هو عدم معرفة كثيرة من المثقفين في بلادنا بهذه القضية اللبنانية التي لا تزال أوراقُها مفتوحة، لم تُغلَق بعد.

ولهذا أكتب هذه الكلمات لتكون مشاركةُ الثقافة المصرية في هذه القضية وفي كلّ القضايا الماثلة أكبرَ مما هي عليه، وهذا هو المتوقَّعُ من كتّابها ومثقفيها.

الإذاعة والتلفزيون، القاهرة، ٢٠٠٨/٥/١٧

في الأيام الأخيرة بالذات، بدأتُ أشعر بهم يحيطون بي في كلّ.. مكان. وبدأتُ أحلم بهم.. أسير في شوارع وسط البلد التي أحفظها جيِّداً، وفي منطقة الهرم التي ولدتُ بها، وفي حي الحسين الذي أعشقه، فلا أجد أحداً أمامي غير الأجانب.. أذني تلتقط لغاتٍ مختلفةً ليست اللغة العربية من بينها. دائماً يقابلونني وجهاً لوجه.. بجواري لا أحد. وخلفي لا أحد.. وهم صفوف كثيفة على مرمى البصر.

تم ترشيح هذه الرواية للائحة القصيرة لجائزة «بوكر» العربية. وهذا بعض ما جاء في لجنة التحكيم عن تغريدة البجعة:

يشتقّ مكاوي سعيد في هذه الرواية الشكلَ الروائي من واقع اجتماعي متحوّل متبدّل، ويعيّن الشكلَ الجديد مدخلاً إلى قراءة الواقع وتحوُّلاته، في عمل روائي جميل يرثي زمناً غنائياً مضى، ويصوغ المستقبلَ المحتملَ بأسئلةٍ بلا إجابات.